مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية. | المجلد 05 / العـــدد: 02.(2021)، ص 136-160

الحياة الاقتصادية والثقافية لقلعة بني حماد

The economic and cultural life of the Citadel of Bani Hammad

سعودي أحمد*
جامعة عمار ثليجي - الأغواط (الجزائر)
a.saoudi@lagh-univ.dz

تاريخ الاستلام: .....07../...../02...../2021... تاريخ القبول: ..25..../...../06...../2021....

ملخص:

رغم الأهمية السياسية التي حظيت بها قلعة بني حماد كعاصمة في عهد الحماديين، إلا أن جانبها الحضاري لازال مطمورا نظرا لانصراف المؤرخين وأصحاب كتب الطبقات والتراجم إلى التركيز على الجانب الحضاري لإفريقية في عهد الزيريين وخصوصا القيروان ، وكذلك تفرق المظاهر الحضارية بالقلعة شذر مذر في كتب النوازل والفقه والطبقات والمناقب، فلا يمكن أن نعثر عليها إلا بعد عناء في شكل نتف لا تستقيم إلا بتوافر عناصر متعددة من المادة التاريخية.

كما أن الدراسات الأجنبية ركزت أيضا على ما توصلت إليه الحفريات الأثرية بعين المكان وفيها من الأحكام المسبقة ما يتعاكس مع ما ورد في المصادر العربية ،ومن هنا سنحاول أن نبرز في مقالنا هذا أهم التطورات السياسية التي عرفتها قلعة بني حماد ؟ وفيما تبلور دورها الحضاري والثقافي؟ وماهي أبرز عوامل هذا الازدهار المتعدد الجوانب ؟

كلمات مفتاحية : قلعة بني حماد، الاقتصاد، الثقافة، المصادر، الازدهار.

Abstract:

Despite the political importance that the Banu Hammad citadel attained as the capital during the era of the Hammadids, its cultural aspect is still buried due to the deviation of historians and translations to focus on the cultural aspect of Africa in the era of the Zirids, especially Kairouan, as well as the differentiation of cultural aspects in the castle scattered in the books , .

Foreign studies have also focused on the findings of archaeological excavations in the location of the archaeological excavations in which there are prejudices that contradict what was stated in the Arab sources, and from here we will try to highlight in our article the most important political developments that Qal'at Bani Hammad knew. With the crystallization of its civilizational and cultural role? What are the most prominent factors of this multifaceted boom?

Keywords:

Bani Hammad Citadel, economy, culture, resources, prosperity.

* **المؤلف المرسل** : سعودي أحمد a.saoudi@lagh-univ.dz

شيدت قلعة بني حماد سنة1007م،على منحدر وعر فوق سفح جبل تاكربوست الذي يبلغ علوه 1418 متر، والذي يقع على الحدود الشمالية لسهول الحضنة، وعلى بعد 36كلم شمال شرق مدينـة المسيلة عاصمة الإقليم حاليا ،إن ما يتميز به موقع قلعة بني حماد من مزايا استراتيجية هامة ، شجعت حماد بن بلكين على بناء القلعة هناك بعدما استقر لـه الأمر بمنطقة الحضنة والزاب لتلعب دورا سياسيا وعسكريا وثقافيا واقتصاديا هاما. كما قصد حماد بن بلكين[1] هذا الموقع المتميز لقربه من مدينة المسيلة وسوق (حمزة) وقد مكث في بنائها ثلاث سنوات وتم تخطيطها على نمط المدن العربية وأحيط بها بسور يتراوح عرضه ما بين1.20م و 1.60م ويبلغ طوله سبعة كيلومترات ومزود بثلاثة أبواب (باب الأقواس شمالا – باب جراوة شرقا – باب الجنان غربا) ومن اهم منشآت القلعة مسجدها الجامع الكبير الذي يقع أسفل المدينة، ويمتد على مسافة طولها 63.20م وعرضها 53.20م وما بقي حاليا منه سوى مئذنته التي يبلغ ارتفاعها 24.70م.أما مصلى قصر المنار الذي يعتبر أصغر مسجد في العالم فيبلغ طوله 1.60موعرضه 1.20م يزينه محراب يتمثل في قوسه المتحفي والذي يذكر بقوس (قبة الصخرة ببيت المقدس). وقد بني حماد بن بلكين قصورا أهمها:قصر الأمير الذي يتربع على مساحة قدرها 4767 م ، وبه بحيرة يصل عمقها إلى 1.60م ،ويعرف اليوم بقصر البحيرة التي كانت تلعب فيها الزوارق حسب ما ذكر في كتاب الاستبصار.

في سنة 1512م ظهرت القلعة على مسرح الأحداث إثر الاحتلال الإسباني لمدينة بجاية فأعاد العباس الحفصي مكانة القلعة المرموقة واتخذها ملجأ له. لهذ انجد أن العاصمة الأولى للحماديين قد لعبت دورا بارزا في ازدهار وإشعاع الحضـارة العربيـة الإسلاميـة، حيث كانت تمثل مركز إشعاع فكري وحضاري ، كما أنجبت العديد من الأعلام والمفكرين نذكر منهم على الخصوص أبا الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي.

---

[1] حماد بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي: مؤسس الدولة الحمادية بقلعة بني حماد وما اليها بالمغرب الأوسط، وثاني دولة اسلامية جزائرية نظامية بهذه البلاد. بدأ حياته السياسية سنة 387هـ (997م) حين ولاه باديس بن المنصور (374 – 406هـ) صاحب افريقية أعمال الجزائر الشرقيه وأقطعه مدينة أشير ونواحيها. وقاد الجيوش لقمع بعض الثورات فأظهر مقدرة عظيمة في السياسة والبطولة الحربية. وطمحت نفسه لإنشاء دولة مستقلة، فأنشأ القلعه (التي عرفت باسمه فيما بعد) على جبل عجيسة من جبال كتامة سنة 398هـ (1007م) وأقام بها منازعا لباديس بن المنصور في حكم الجزائر الى ان أظهر الانفصال عن دولة باديس ونقض البيعة سنة 405 هـ (1014م) وعلى سلطته على الجزائر. وقامت في أيامه فتن وحروب أثارهابنو عمه فتغلب عليهم وتمكن من قمعها. واستمر في الحكم إلى أن توفي بتازمرت، وقيل بالقلعة. قال ابن الخطيب: "كان نسيج وحده، وفريد دهره، وفحل قومه، ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا، وداهية حصيفا، قرأ الفقه بالقيروان، ونظر في كتب الجدل، وأخباره مشهورة" ،ينظر:عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر،مؤسسة نويهض ، بيروت ، لبنان ،1980ج1 ،صص122–123.

سنسعى في مقالنا هذا إلى الغوص في أهم عوامل ازدهار قلعة بني حماد ثقافيا واقتصاديا وحضاريا ،مبرزين أهم مظاهر هذا التطور والازدهار الذي جعل هذه القلعة عاصمة للحماديين ، ومركزا مشعا من مراكز الحضارة العربية الإسلامية في المغرب الأوسط وشمال إفريقيا.

1. عوامل الازدهار الحضاري لقلعة بني حماد وأهميتها الاقتصادية:

لم تتحول قلعة بني حماد بمحض الصدفة إلى مركز اقتصادي هام و إلى مركز إشعاع ثقافي بارز قصده الكثير من العلماء بحثا عن العلم أو بحثا عن التدريس والتلقين في جوامعه ومدارسه ، وقبل الحديث عن أبرز ملامح النشاط الاقتصادي والثقافي لقلعة بني حماد لا بأس أن تعرف عن مجموعة من العوامل التي أهلت القلعة لاحتلال هذا الدور البارز .

1.1 عوامل الازدهار الحضاري لقلعة بني حماد: هنالك مجموعة من العوامل والمعطيات التي أهلت قلعة بني حماد للعب دور هام في منطقة المغرب الوسط وكل شمال إفريقيا وفيما يلي أهمها:

أ – العامل السياسي:

- **دور الأمراء الحماديين.**

اعتمد الأمراء الحماديون في القلعة على سياسة البناء و التشييد و التعمير انطلاقا من مؤسسها حماد الذي شيد بنيانها و أسوارها، و استكثر فيها من المساجد و الفنادق التي كان يظهر فيها الفن العراقي و الأندلسي، كما أنشاء الحدائق الغناء و البساتين الجميلة إضافة إلى أنه عمل أكثر من 18 (ثمان عشر) عاما يعمل على زيادة التوسع العمراني و الزراعي[2] فيها، كما استطاع القائد بن حماد من أن يولي اهتماما كبيرا بالتنظيم الإداري و القضائي و التشريعي و ذلك بتعيين[3]كل فرد من إخوته على إقليم من البلاد لإدارة شؤونها إضافة إلى أنه سار على نهج والده بالاهتمام بالجانب الثقافي و الحضاري للدولة كما كان الناصر بن علناس من أكثر الأمراء الحماديين اهتماما بالبناء و التشييد [4] وعلى

---

[2]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، موسوعة تاريخ المغرب العربي، ج2، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994م. ،ص273.

[3]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق،ص278.

غرار هذا أيضا كانت سياسة حماد المتمثلة في إعلان المذهبية السنية و خلع الطاعة للعبيدين[5]إحدى الركائز الأساسية التي حولت أنظار المغرب الإسلامي الذي كان يدين للمذهبية السنية إلى القلعة حاضرتهم الأولى، بل أكثر من ذلك فقد كانت بالقلعة مذاهب إسلامية على رأسها المذهب الخارجي الاباضي[6]، مما يبرز روح التسامح التي كانت تسود القلعة روحيا ومذهبيا وساهمت كثيرا في الحفاظ على الوحدة والاستقرار السياسي لمدة طويلة. و الأكيد أنه كانت هناك مذاهب و ملل أخرى[7].

وهناك جانب آخر من سياسة الحكام الحماديين الذي لعب دورا هاما في تحول القلعة إلى حاضرة فكرية، يتمثل في الحروب و التوسع الإقليمي سواء ضد بني زيري و ضد الزنا تيين و كذا المرابطين ، كما عرف هؤلاء الحكام أيضا بتقريبهم للأدباء و العلماء و الاستفادة منهم في مختلف المجالات[8] وداخل هياكل الدولة مثل الفقيه أبو القاسم بن أبي مالك الذي كان يقيم بضواحي القلعة والذي استخدم كسفير في القيروان في عهد القائد بن حماد سنة 438هـ –1046.

ب– العامل الجغرافي :

- **موقع قلعة بني حماد** :تقع قلعة بني حماد بين خطي طول 5 درجة شرقا و خط 36 درجة جنوبا عند جبل المعاضيد من مجموعة جبال الحضنة التي تشكل الأطلس الصحراوي، وتقع على بعد 36 كلم شمال شرق مدينة المسيلة[9] عاصمة الحماديين الأولى محمية بالحاجز الجبلي المتمثل في جبال البابور و سلسلة البيان التي تفصلها عن البحر وتشكل جدار دفاع أولي عند الضرورة و هذا البعد خفف من وطأة البحر و مخاطره من الناحية الشمالية وقلل من إمكانية التعرض لأية هجمات عبر هذا الممر .

---

[4]– عبد الرحمن ابن خلدون ، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، مكتبة القاهرة، مؤسسة الإعلامي للمطبوعات، لبنان، 1982م،ص202.

[5] – رشيد بورويبة ،الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1977, ،ص166.

[6] – ورد في عدة مراجع أن اليهود و النصارى كانوا في القلعة و يذكرون أن إسحاق الفاسي ولد بها.انظر : عثمان الكعاك ،موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي ، تقديم أبو القاسم سعد الله و أخرون ،دار الغرب الاسلامي ،ص206. و محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،1983،ص143.

[7]– نفسه ،ص202.

[8] – Rachid Bouruiba ،les hammadites, Entreprise National du livre ,Alger , 1984,p 30.

كما لا ننسى أن القلعة بنيت على منحدر وعر فوق جبل تاكربوست الذي يصل ارتفاعه إلى 1418م على الحدود الشمالية لسهول الحضنة، حيث يحد القلعة شرقا واد فرج الذي يجري بين جبل الرحمة و جبل رزوق الذي يصل ارتفاعه من 1008م إلى 1400م أي من الشمال إلى الجنوب و كان هذا الواد في عهد الحماديين يسمى بواد جرارة.

كما يحدها غربا جبل قرين الذي يصل ارتفاعه إلى 1190م [10] ولا يفصل بينه و بين جبل الرحمة إلا مضيق، أما جنوبا فيقع المدخل الرئيسي و الوحيد للقلعة و هو عبارة عن طريق كثير التعاريج ، يساير واد فرج ، كما نجد سهول الحضنة وراء جبل تاكربوست، أما أرضيتها فهي عبارة عن سطح ذو هبوط منتظم تمثل هضبة صغيرة علوها يصل 950م و ارتفاعها على مستوى البحر يقدر ب 100م .[11]

- **تخطيط المدينة المعماري :**

أحيطت القلعة بسور على شكل رجل كبش حيث يساير قمة لقرين2 يتماشى هذا الصور مع الشط الشرقي لواد فرج من جهة الشرق نحو الشمال يكمل اتجاهه إلى أن يصل إلى جبل تكربوست يتراوح عرض الصور ما بين 1.20م إلى 1.60م و طوله 7 كلم. بني من الحجر و الديش و يتم الدخول للقلعة عبر عدة أبواب أهمها[12]:

* باب الأقواس: يقع عند التقاء جبل قرين بالسهل، ولم تبقى أثار لهذا الباب إلا أثاره الشمالية.

* باب الجنان: يوجد في شرق المدينة يؤدي بنا إلى طريق القيروان.

* باب جراوة: يطل على جسر سيدي عيسى و يقع في حي جراوة.

- **أهم المباني المتواجدة في القلعة :**

أ) – المسجد : يعتبر من أهم المباني المتواجدة في القلعة إذ كشفت الحفريات على المسجد العظيم و مسجد آخر بقصر المنار يقع هذا المسجد في أسفل المدينة (القسم الجنوبي) .

ب) – قصر البحر أو دار البحر : يقع وسط المدينة.

---

[9]– رشيد بورويبة ، مدن مندثرة ،سلسلة فن وثقافة ،وزراة الاعلام و الثقافة ،الجزائر ،1992،ص83.

[10] – Lucien Golvin,Le Maghreb central à L’époque des ziri des arts et métiers graphique,paris1957,p2.

[11]– رشيد بورويبة ،المرجع السابق، ،ص84.

ج)- قصر المنار : يقع في الطرف الشرقي للمدينة على المنحدر الذي يطل على واد فرج.

د)- قصر السلام : يقع غرب المدينة.

هـ)- قصر الكوكب : يقع شمال غرب المدينة.

و)- قصر الأمراء : يقع في الجزء الشمالي الشرقي.

قد كان للطابع العمراني للقلعة أثره الإيجابي على مختلف النشاطات الاقتصادية والثقافية للمدينة والقلعة مما جعلها مركزا تجاريا هاما ومركز إشعاع ثقافي وقبلة للكثير من العلماء وطالبي العلم.

ج- العامل البشري :

- **هجرة القيروانيين الى القلعة** : وتذكر المراجع أن [13]السكان الذين أتوا من القيروان منهم التجار و أصحاب رؤوس الأموال و طلاب العلم سنة 405هـ/ 1014م،وكمثال عليهم أبو القاسم عبد الجليل ابن بكر المعروف بالدباجي الذي رحل من إفريقية بعد الغزو الهلالي للقيروان سنة 449هـ/ 1057م.[14] المعروف بابن الباذش و أحمد بن خلف بن الطاهر بن علي بن عيسى بن عبادة الأنصاري البلنسي. وأحمد بن خصيب (ت 450هـ/ 1058م). والأندلس في ذلك الوقت كانت إحدى أقطاب الحضارة في العالم الإسلامي، ومركز للإشعاع الفكري الذي يضاهي بغداد وأهلها، ولما انتقلوا إلى القلعة كانوا يحملون معهم مستواهم الحضاري الراقي.

- **الهجرة الأندلسية و الصقلية:**

استقبلت القلعة المهاجرين سواء كانوا على شكل جماعات أو أفراد فارين من السلطان المرابطي الذي كان يتمركز في المغرب[15] أو الفارين من الحرب الأهلية التي حدثت بقرطبة و المعروفة بالفتنة القرطبية في نهاية المائة الرابعة و مثال ذلك من العلماء الأندلسيين الوافدين: أحمد بن علي بن خلف الأنصاري من غرناطة والأندلس في ذلك الوقت

---

[12]- محمد بن عميرة،القلعة قاعدة بني حماد الثقافية الأولى، حولية المؤرخ لإتحاد المؤرخين الجزائريين، العدد1، الجزائر، 2002م، ص106.

[13]- عشراتي سليمان، **الشخصية الجزائرية، بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية**، ج2، دار الغرب للنشر و التوزيع، الجزائر، 2002م، ص111.

كانت إحدى أقطاب الحضارة في العالم الإسلامي، ومركز للإشعاع الفكري الذي يضاهي بغداد وأهلها، ولما انتقلوا إلى القلعة كانوا يحملون معهم مستواهم الحضاري الراقي.

وكما سجل التاريخ فإن الهجرة الأندلسية إلى جميع بلاد المغارب كانت ذات تأثير إيجابي انعكس على جميع القطاعات الاقتصادية كحركة إدخال الأموال والمعادن النفيسة أو إدخل أنماط زراعية جديدة لم تكن المنطقة تعرفها أو سابقا او من حيث تطوير هائل لأنظمة الري والآبار وإستخدام للصهاريج والقنوات .

أما التأثير الأكثر وضوحا فكان في مجال التعليم بإنشاء الأندلسيين للعديد من المدارس التي ساهمت في نقل الكثير من العلوم إلى المنطقة وأفادت كثير في ترقية المستوى العلمي دراسة وتأليفا ، ولم تكن قلعة بني حماد بعيدة عتلك الإستفادة ، فقد ظهرت بها العديد من المدارس على النمط الأندلسي ، والتي نجحت في تخريج العديد من طلبة العلم ممن سيكون لهم باع في الكثير من العلوم.

ولاشك أن تطور العلوم هو في حد ذاته سيخدم بقية المجالات الاجتماعية والثقافية و الاقتصادية بقلعة بني حماد ليحولها إلى مركز حضاري بامتياز ومركز إستقطاب للكثير من العلماء بين طالب للعلم او مساهم في حركة التعليم والتأليف بتلك الحاضرة كما تشهد عليه الكثير من النشاطات العلمية التي عرفتها مدارس وجوامع الحضارة.[16]

2. الحياة الاقتصادية لقلعة بني حماد:

لقد كانت قلعة بني حماد في عهد الحماديين الأول تعيش حياة هنية و رغدة بسبب التطور الاقتصادي الكبير الذي كانت تتمتع به و الذي نقل الناس من البداوة إلى الحضر، ومن العوامل التي كان لها الدافع إلى الازدهار الاقتصادي الحمادي هي الموقع الاستراتيجي للقلعة، إذ تقع بين سفوح السهول و خاصة سهول الحضنة التي ما تزال تشتهر بوفرة ما تنتجه من أنواع الحنطة والشعير، حيث تملك هذه السهول أراضي خصبة تنشر فيها الحقول و البساتين و بذلك جلب حركة التجار نحوها، فأصبحت بذلك مركزا تجاريا و صناعيا هاما، وهذا ما جعل الدولة تعيش حالة استقرار و رقي و رخاء ورفاهية كبيرة .

1.2 الفلاحـة :

[14]– منور البركاني ، **قلعة بني حماد الحاضرة والحضارة** ،منشورات جمعية اليقين الحضاري ، المسيلة ،1995،ص110–111.

تعتبر الفلاحة من العوامل التي ساعدت على الاستقرار في القلعة عكس التجارة، التي تعتبر عامل جذب، إذ كانت القلعة و احوازها مزدهرة فلاحيا[17] مثلا في زراعة الحنطة و الأشجار المثمرة[18] و الشعير إضافة إلى تربية الحيوانات [19] و دون أن ننسى القمح الذي كان يحفظ لسنة أو سنتين دون أن يفسد، بسبب كثرة غلتها منه و هذا حسب ما قاله الإدريسي: "...كانت بكثرة غلتها تكفي لسنة أو سنتين دون أن تفسد" .

وكان الحماديون يقومون بطمر المحصول الزائد عن حاجتهم من القمح و هذا ما تؤكده الحفريات التي عثر عليها لوسيان جولفان بقلعة بني حماد، و هي عبارة عن مطامير كثيرة محفورة في صحن دار قريبة من قصر السلام كما أنها كانت تنتج العديد من الفواكه و الخضروات مثل الكروم و الزيتون و البقوليات، إضافة نبات الفوليون الحراني الذي يشربــه أهل المنطقة ليتحصنوا من ضرر العقارب. كما أنها كانت مشتهرة بتربيــة الغنــم و البقر و النخيل و الإبل و النحل و حتى البغال.

2.2 الصناعة :

لم يكتف الحماديون بالزراعة فقط، بل اتخذوا أعمالا أخرى غيرها، منها صناعة المعادن من ذهب و فضة و رصاص، كما اشتغلوا بصناعة النسيج، وهذا ما ذكره صاحب الاستبصار، فضلا عن هذا تميزت بصنع الملابس كألبسة الرجال و النساء.

اشتهرت القلعة بصناعة الفخار و الخزف والزجاج و صناعة المطاحن، وهذا ما تدل عليه الحفريات و القطع الخزفية التي عثر عليها المنقبون، و التي تدل على ما بلغته هذه الصناعة من تطور وإبداع في الحرف و الزخرفة، الأمر الذي

---

[15]– الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص117.

[16]– نفسه،ص117.

جعل سمعة القلعة تتعدى الحدود المغربية إلى مختلف بقاع العالم و بصفة خاصة العالم الإسلامي حيث أصبحت قبلة لطلبة العلم و للحرفين و التجار والصناع.[20]

لقد شهدت الصناعة تطورا ملموسا رافع التطور و الازدهار الثقافي باعتبار أن الصناعات في الطرف الثاني من المعادلة التي تعتبر الثقافة الطرف الأول منها، هذا التطور الذي ما زالت آثارها تشهد عليه إلى يومنا هذا، سواء في الميدان المعماري أو في الفنون الصناعية الأخرى.

و لدينا شهادة حية لشاعر كتب قصيدة يصف فيها أحد القصور الحمادية العجيبة فيقول:

قصر لو أنك قد كحلت بنوره أعمى لعاد إلى المقام بصيرا.

هذا القصر الذي بناه الناصر المسمى بقصر اللؤلؤة هو نموذجا للقصور الحمادية التي شيدت في القلعة في العهد الحمادي و هو يعتبر من القصور العجيبة في الدنيا، كما وصفه ابن خلدون. و قد كان لتطور الفنون المعمارية أن رافقها تطور بعض العناصر المعمارية الزخرفية مثل صناعة الفخار و الخزف هذه الصناعة التي لعبت دورا هاما في فن العمارة الإسلامية عامة و الحمادية خاصة، حيث استعملها الفنان كمادة أولية لتزين القصور و المساجد و استعملها الامويون و الفاطميون ثم العباسيون لتزيين قصورهم و مساجدهم بعضها لا يزال شاهد إلى يومنا هذا إلى جانب استعمال هذا النوع من الصناعة في مجالات عملية كالأواني مختلفة الأشكال و الوظائف و الأنابيب لصرف و جلب المياه والقرميد إلى غير ذلك من الاستعمالات الأخرى. و لقد وصل هذا النوع من الصناعة إلى درجة عالية من الرقي و التطور وهذا من خلال القطع الخزفية و الفخارية التي احتفظت بها قلعة بني حماد[21] .

ولعل الإقبال الكبير على هذه الصناعة من طرف الحماديين له دلالة واضحة على الأهمية و المكانة التي كانت تكتسبها هذه الصناعية في نفوس الحماديين، بالإضافة إلى التشجيعات المادية منها و المعنوية التي كان يقدمها الحكام للحرفيين و الصناع لاسيما في عهد الناصر بن علناس الذي كان مولعا بالفن، هذيا كله كان حافزا في تطور الخزف والفخار و الصناعات الأخرى إلى الدرجة التي أصبحت عليها بعد ذلك، وهي درجة تقارب إن لم نقل تساوي الخزف الإسلامي المبكر مثل الخزف الفارسي، والأموي والفاطمي و العباسي أو المعاصر مثل الخزف المرابطي و الأندلسي.[22]

---

[17]– ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 350.

[18]– Lucien Golvin،2 Op.cit.p 6 .

[19]– البكري أبي عبيد الله، **المسالك و الممالك**، ج2، تحقيق فان لويغن و أندري فيزي، الدار العربية للكتاب، تونس ،1992م.،ص710.

وأخيرا لا بد من الإشارة إلى أن القلعة كان بها خزافون لديهم مهارة كبيرة في هذا الميدان ورغم الأبحاث الكثيرة التي قام بها الأثريون لإظهار وتباين مراكز صناعة الفخار الحمادي، فإنهم لم يتوصلوا حتى الآن إلى حقائق ملموسة ونتائج ايجابية تلقي الأضواء على هذا النوع من الموضوعات وتمكن الباحثين الأثريين من الوصول إلى حقائق علمية ثابتة بعيدة عن كل افتراض و التباس و غموض و نظرا لعدم توفر تلك الحقائق العلمية المادية، فإنه لم يبقى أمام الأثريين إلا اللجوء إلى أدوات أخرى تعتمد كل الاعتماد على أسلوبي المقارنة والافتراضات ، ومن ثم استنتج كل من الأستاذ "جولفان"و "جورج ماسي" أن المصانع الخزفية الحمادية كانت بدون شك موجودة خارج القلعة[23] في المكان الذي تشغله المصانع الحالية الموجودة هناك أي جنوب العاصمة على سفح جبل الرحمة. ويعتقد أشبل روبير أنها كانت موجودة على الضفة الغربية لوادي فرج خارج أسوار المدينة القريبة من الأنقاض الرومانية الموجودة في الجهة السفلى على حوافي وادي فرج [24] ، و لنا أن نقول أن الحماديين كانوا يمتلكون مصانع للخزف و هو ما تؤكده القطع والأواني التي وجدت في القلعة.

3.2 التجارة:

لقد كانت التجارة من أهم القطاعات التي أدت إلى التطور الحضاري لقلعة بني حماد، حيث كان يمر بها مسلكين لتجار الذهب و الرقيق، يربطان بين بلاد السودان وافريقية خلال القرنين 4هـ-5هـ/9م-10م[25]، والتي جاءت للقلعة بمجموعة من رؤوس الأموال المهاجرة إليها خاصة من القيروان عقب تخريبها في ظل هذه الحركية الدؤوبة للتجارة، كان ينتقل مع القوافل التجارية الأدباء والشعراء والفقهاء الصوفية والحرفين والتجار و يضعون رحالهم بها وهذا ما نراه في قول البكري: "هي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العرب و الحجاز ومصر والشام و سائر بلاد المغرب"[26].

---

[20]– رشيد بوريبة ،المرجع السابق ،ص145.

[21]– نفسه ،ص147.

[22]– رشيد بوريبة ،المرجع السابق ،ص149.

[23] – البكري، المصدر السابق ، ص 716.

وبهذا انتقلت الأفكار و المذاهب إلى القلعة مع هؤلاء التجار و الحرفين القادمين كما قلنا سالفا من كل أنحاء المشرق و المغرب الإسلاميين، فأفادوا المدينة وساهموا في رقيها الفكري والحضاري بنشر أفكارهم ومبادئهم، إضافة لمذاهبهم فيها والأكيد انه اصحب لهم فيها طلاب و تلامذة.

لقد كان الحماديون في القلعة يستعملون العملة الفاطمية إلى جانب العملة المرابطية والدليل على ذلك عثور المهندس الذي قام بإصلاح جامع سيدي مروان على عدد كبير من الدنانير المرابطية.

أما فيما يتعلق بالأسعار فإن الحماديين كانوا يستعملون الكسا الذي يساوي 30 دينار بالقلعة،إضافة إلى أن الأوزان الرئيسية فيها هي المثقال الذي يناسب وزن الدينار 4.21غ و4.25غ و الدرهم المستعمل للوزن يزن10/7 من المثقال إضافة لوجود الصنجة والوقية و الرطل و القنطار[27].

كما أن المكاييل المستعملة في القلعة هي المد النبوي الذي يساوي 0.733ل والويبة التي تساوي 64 مدا والصفحة التي تساوي 48 قادوس الذي يساوي 3 أمداد نبوية والقفير الذي يساوي 5/1 مد نبوي[28].

أما فيما يخص مقاييس الأبعاد فكانوا يستعملون الذراع الذي يساوي 0.48م وفي مقاييس المسافات كانوا يستعملون الميل الذي يساوي 1453م والفرسخ يساوي 5250م واليوم فيما يخص مقاييس المساحات فقد استعملوا الزوج الذي ورثوه عن الزيرين وهو المساحة التي يحرثها ثوران في فصل.[29]

3. الحياة الثقافية لقلعة بني حماد :

أضحت قلعة بني حماد مركز إشعاع ونشاط ثقافي بارز على مستوى المنطقة وحتى على مستوى العالم الإسلامي بما شهدته من حضور لأسماء علمية وازنة في مختلف الفنون والآداب كما سنوضحه من خلال التلرق لأبرز العلوم والعلماء الذين مروا أو عاشوا بهذه الحاضرة .

1.3 أبرز العلماء و الأدباء و العلوم المنتشرة آنذاك :

---

[24]– رشيد بورويبة ،المرجع السابق ،ص145.

[25]– نفسه ، ص147 .

[26] – رشيد بورويبة ،المرجع السابق ، ص 150.

جاء التطور الفكري بقلعة بني حماد في سياق زمني مهم تميز بوصول الحضارة العربية الإسلامية إلى قمتها في المشرق العربي والأندلس ليسقط بضلاله على قلعة بني حماد التي ازدانت بها الحياة الفكرية بنهضة كبيرة في مجال العلوم النقلية والعقلية[30]، ولنا أن نعطي مجموعة من تلك العلوم التي راجت في قلعة بني حماد في تلك الحقبة المضيئة:

- **الفقه و أصوله:**

جاء مبدأ الدراسات الفقهية السنية في مدينة القلعة عقب الانقلاب الفقهي الذي حدث فيها بعد نبذ حماد بن بلكين (ت419هـ/ 1028م) الدعوة للعبيديين وإعلانه الدعوة للخلافة العباسية السنية في بغداد عام 405هـ/ 1014م ، ومن هذا التاريخ بدأت الدراسات الفقهية تزدهر و تنتعش وكان الغالب على الفقه دراسة المذهب المالكي الذي كان أكثر انتشارا في بلاد المغرب الإسلامي، وهذا لا يعني انه لم يكن هناك مذاهب فقهية أخرى بل على العكس ولكن بدرجة أقل كما سيأتي معنا.

وأول فقهاء مدينة القلعة مؤسسها حماد بن بلكين توفي (419هـ/ 1028م) الذي تعلم وفي القيروان و اخذ الفقه عن شيوخها، ونظر في كتب الجدل[31] ما أورده ابن الخطيب (ت779هـ/ 1374م) شيئا على المذهب الذي كان يتبعه حماد ، ومنه أصبحت الدراسات الفقهية على المذهب المالكي تتسع في القلعة، إذ كانت إجبارية على الطلاب و الدارسين، وغدت هي التخصص الأول المفضل في دراسة العلوم النقلية[32] ومن العلماء الذين برزوا في الفقه أبو القاسم ابن أبي مالك ورد إلى القيروان رسولا من قبل ابن حماد إلى المغرب (498هـ/ 1104م)[33] ولقد كان السبق في تطور الفقه

---

[27]– أبو العباس أحمد الغبريني، **الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة لبجاية**، تحقيق رابح بونار، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر ،1981م. ،ص341.

[28]– لسان الدين ابن الخطيب، ، **الإعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام و ما يتعلق بذلك من كلام**، ج2، تحقيق سيد كسروي حسن، طبعة 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.ج2، ص328 .

[29]– عبد العزيز فيلالي، قلعة بني حماد الحاضرة الإقتصادية والثقافية للمغرب الأوسط القرن 5هـ/11م، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع7، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2006م، ص16 .

[30] – أبو الفضل موسى اليحصبي السبتي القاضي عياض، **ترتيب المدارك و ترقيب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، ج4، تحقيق احمد بكير محمود، دار المكتبة الحياة بيروت، دار المكتبة لفكر طرابلس،(د،ت)،ص779.

المالكي لأب الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي (ت 513هـ/1119م) الذي تتلمذ على يد أبو عبد الله محمد ابن أبي الفرج المازري المعروف بالذكي[34] ،وهو من أهم رواد أصول الفقه في القلعة، إذ كان متفوقا ومتميزا في الفقه المالكي عارفا بأصول الدين يميل إلى النظر والاجتهاد[35]، ومن العلماء الذين كان لهم أيضا إسهامات فقهية في القلعة أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي قرأ ببلدة القلعة يعد من كبار الأئمة، والفقيه أبو العباس احمد بن محمد ابن عبيد الله المعافري وأبو عبد الله محمد بن محمد بن صمغان القلعي الفقيه القاضي.

ومن العلماء الذين كان لهم أيضا إسهامات فقهية في القلعة أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي (ت628هـ-640هـ/1230-1242م) قرأ ببلدة القلعة، يعد من كبار الأئمة[36]، والفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن عبيد الله المعافري[37] ،ومنهم أيضا أبو محمد عبد الله محمد بن عمر بن عبادة القلعي (ت 169هـ/1270م)، الذي قال عنه الغبريني:(كان حافظا للخلاف العالي والمذهب المالكي، حسن النظر والتوجيه....)[38] والفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر المنصور القلعي (ت 670هـ/1271م) وكان عالما بأحكام الشروط والوثائق[39]، وأبو عبد الله محمد بن صمغان القلعي، والفقيه القاضي[40]، ومحمد بن يوسف السنوسي القلعي.

---

[31]- نفسه، ص 772 .

[32] – بابا التمبكتي، **نبيل الابتهاج في تطريز الديباج**، دار الكتب العلمية، بيروت،(د،ت)، ص16.

[33]- محمد بن محمد مخلوف، **شجرة النور الذكية في طبقات المالكية**، ج1، تعليق عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص268.

[34]- محمد بن محمد مخلوف ،المصدر السابق ، ص270.

[35]- نفسه،ص269 .

36- محمد بن أبي القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج2، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة، تونس، 1985م. ، ص495-496 .

[37]- الغبريني، المصدر السابق، ص198 .

و من إسهامات الفقيه أسئلة تزيد على خمسين ومسألة التعريف بالقلعة[41]، وأحمد بن الطاهر بن علي، وأحمد بن الطاهر بن علي بن عيسى بن عبادة الأنصاري[42]، والمذهب الظاهري في القلعة كان ممثلا بابن عبد الكريم المعروف بابن يبكي القلعي وكان متقنا ومجيدا[43] ، أما الحضور الشافعي فيها كان ممثلا بالفقيه علي بن معصوم بن أبي ذر القلعي (ت 551هـ/1156م)[44]. ومحمد بن علي بن جعفر المعروف بابن الرمامة (478-567هـ/1085-1171م) ، ألف كتاب تسهيل المطلب في تحصيل المذهب، وكتاب التبيين في شرح التلقين واختصر كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي، وكان من الفقهاء البارعي.

- **علم القراءات:**

و هو اختلاف رواية الصحابة للقرآن والسنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفية الحروف في أداءها وتناقل ذلك، واشتهر إلى أن استقرت عنها سبع طرق معينة، تواتر نقلها وانتسبت إلى من اشتهر بها، وهناك قراءات تعرف بالعشر وكذا الأربع عشر[45].

أما في القلعة وسائر بلاد المغرب الإسلامي قد انتشرت قراءة أبو عمر الداني[46]، ومما شجع علي انتشار هذا العلم بالقلعة والمغرب، أن أمراء البربر كانوا يحيون ليلهم ويقضون نهارهم في قراءة القرآن في محارب قصورهم وأشهر من برع في علم القراءات في القلعة أبي العباس أحمد بن عبد الله المعافري الذي وصفه صاحب عنوان الدراية الشيخ الفقيه المقرئ المتقن الأستاذ النحوي المحسن المقدم في القراءات[47]، اختصر كتاب التيسير لعمر الداني اختصارا بليغاً، قيل

---

[38]– أبو عبد الله محمد بن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص279 .

[39]– أبي عبد الله محمد بن عبد الله البلنسي ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، تعليق ألفريد بل، مطبعة الشرقية للأخوين فونطانا، الجزائر، 1919م.، **ص 59**.

[40]– الغبريني ،المصدر السابق، ص189،188 .

[41]– محمد بن عميرة، المرجع السابق ،ص110.

[41] – ابن خلدون، **المقدمة**، ص782 .

[42]– الحفناوي ،المرجع السابق ،ص 498.

[43]– الغبريني ،المصدر السابق، ص140.

عنه أنه لا يتساهل في الإجازة بأي وجه ولا يمكن منها الطلبة إلا بعد تحصيل وكل من ظهر من الطلبة بإجازاته فقد ظفر بالغاية القصوى ووصل إلى المرتبة الأولى ، والمقرئ أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن محمد المعروف بابن عفراء، كان حسن التلاوة صادق القراءة، إذا أحي ليلة السابعة والعشرون من رمضان، يرغب الناس القيام خلفه لصدق قراءته ، ومحمد بن مزي القلعي اعتزل أهله وسكن القلعة في مكان منعزل ووعر في الجبل[48] بني في هذا المكان عدة مساجد منها مسجد الجامع الكبير ومسجد أحمد بن الطاهر الأنصاري ومسجد أبي مروان الحمداني[49].

- **علم الحديث :**

هو إسناد السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم، وكذلك لينفع الوثوق بأخبارهم ويعمل ما يجب العمل بمقتضاها ،ومن أعلام هذا العلم أبو عبد الله محمد بن صمغان القلعي، كان مجيدا في علم الحديث قال عنه الغبريني "كان له علم بالحديث والفقه والوثيقة وأكثر تخاطيطه تحدث وأبو عبد الله محمد بن أحمد القلعي ونلاحظ نقص الاهتمام بهذا العلم في قلعة بني حماد، ربما يعود السبب في ذلك الاهتمام بالدراسات الفقهية الأصولية والفرعية.

- **التصوف :**

هو من العلوم الشرعية الحادثة في الملة (أي التي دخلت على الإسلام بعد عهد النبوة والصحابة)، ومبدأ هذا العلم العكوف والانقطاع لله تعالى، والابتعاد عن الدنيا وزخرفها ونبذ هوى النفس والانفراد في خلوة للعبادة وكان هذا الحال عامة السلف الصالح، ولم فشاحب الدنيا والإقبال عليها في القرن الثاني هجري وما بعده، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوف[50]، وقد ولج هذا العلم إلى المغرب الأوسط وحواضره على رأسها القلعة في النصف الأول من القرن السادس هجري و ذلك بدخول جملة من المصنفات الصوفية في المغرب الأوسط على شاكلة كتاب رعاية المحاسبي أواخر القرن هو من العلوم الشرعية الحادثة في الملة (أي التي دخلت على الإسلام بعد عهد النبوة والصحابة)، ومبدأ هذا العلم العكوف والانقطاع لله تعالى، والابتعاد عن الدنيا وزخرفها ونبذ هوى النفس والانفراد في خلوة للعبادة وكان هذا

---

[44] – الحفناوي، المرجع السابق ، ص513– 514 .

[45] – الحفناوي ،المرجع السابق ، ص274.

[46] – الغبريني، المصدر السابق،ص189.

الحال عامة السلف الصالح، ولم فشاحب الدنيا والإقبال عليها في القرن الثاني هجري وما بعده، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوف[51]، وقد ولج هذا العلم إلى المغرب الأوسط وحواضره على رأسها القلعة في النصف الأول من القرن السادس هجري و ذلك بدخول جملة من المصنفات الصوفية في المغرب الأوسط على شاكلة كتاب رعاية المحاسبي أواخر القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي، وكتاب إحياء علماء الدين للغزالي[52]، في القرن السادس هجري الثاني عشر ميلادي، والرسالة القشيرية[53] في النصف الثاني منه[54].

وعرفت القلعة بنوع من التصوف يعرف بالتصوف السني[55] ،ومن أبرز متصوفي القلعة نذكر أبا القاسم الذي قال عنه القاضي عياض: "صاحب فيه ورع و زهد ومروءة وخير"[56]، حتى أنه لما بعث في سفارة إلى القيروان عام 438هـ/1046م كما أسلفنا لم ينفق طوال إقامته في القيروان إلا من ماله الخاص، وهذا دليل على زهد وشبع نفسه، والشيخ أبو عبد الله بن محمد بن أبي الفرج المازري المعروف بالذكي شيخ ابن النحوي، وأشهر الزهاد والمتصوفين القلعيين ابن النحوي الذي حاول التمكين لهذا العلم من خلال نشره نظرية الغزالي في التصوف بالقلعة[57]، وبدأ في تطبيقها على نفسه، كان يلازم القيام والصيام والتهجد حتى أنه لا يشعر بما حوله وهذا ما يؤكده ابن مريم :"كان يصلي أكثر في داره اللغط وارتفعت الأصوات فقال ضيف لابنه أما تشغلون خاطر الشيخ فقال: إذ دخل في الصلاة لم يشعر من ذلك ثم أدنى السراج من عينه فلم يشعر لحضوره مع غيبته مع الخلق"[58]، وكان لشدة زهده لا يقبل من أحد شيء ولا يأكل إلا ما يأتيه من بلده الأصلي، لبس خشن الصوف وقصر جانبيه حتى وصلت إلى ركبتيه[59]، وزهده هذا كان يجلب له نقد

---

[47] – الغبريني ، المصدر السابق ،ص189.

[48]– الطاهر بونابي، الدولة المركزية بقلعة بني حماد التأسيس والتداعيات، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع7، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2006م.، ص46 .

[49]–نفسه،ص35.

[50]– نفسه،ص83،82.

[51]– نفسه،ص38.

[52]–القاضي عياض،المصدر السابق،ص779.

[53]– الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص117 .

[54] – ابن مريم، المصدر السابق، ص301 .

[55] – التمبكتي، المصدر السابق، ص305.

الآخرين حيث انتقده قاضي الجماعة بالقلعة أبو عبد الله بن عصمة وقال له "صفرت وجهك ورققت ساقك" ، كما كان مناصرا لكتاب الإحياء للغزالي حيث عارض إحراقه بشدة وكان يرى أن حلف الناس بالإيمان المغلظة على أن كتاب الإحياء ليس عندهم وليست ملزمة لهم ،واستنسخ الإحياء في ثلاثين جزء[60] دخل عليه يوما تلميذه ابن الرمامة وهو في مكتبة بيته فوجد عنده أسفار جديدة فسأله عنها، فقال له هي كتاب الإحياء للغزالي ولو اقتنيته قبل هذه الكتب لم أكتب كتابا منها ولقد كان ابن النحوي في بلده بمنزلة أبي حامد الغزالي في العراق علما وعملا).

- **العلوم اللسانية:**

هي أربع علوم النحو واللغة والبيان والأدب، حيث اتخذ بنو حماد العربية لسان الدولة الرسمي ذلك لأنهم استفادوا من أنظمة الحكم العربي الإسلامي الذي ساد شمال افريقية في ذلك الوقت، حيث نجد أن حماد مؤسس الدولة قد نشأ بالقيروان نشأة عربية إسلامية ودرس الفقه وعلوم العربية ولما استقل عن باديس ابن أخيه (405هـ/1014م) أنشأ ديوان للكتاب وقد ازدهرت العلوم اللسانية بكامل حواضر بلاد المغرب الإسلامي لا سيما في قلعة بني حماد.

- **النحو واللغة :**

اشتهر هذا العلم في القلعة على يد أبي الفرج المازري كان متقدم في علم اللسان[61]وأبو الفضل يوسف ابن النحوي وأبي عبد الله محمد بن محمد المعافري المعروف بابن الخراط، وصفه الغبريني بالشيخ الفقيه النحوي[62].

- **الأدب:**

عرفه ابن خلدون بالإجادة في فني المنظوم والمنثور، على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجع متساوي في الإجادة...[63]،

---

[56]–التمبكتي ، المصدر السابق،ص354.

[57]– القاضي عياض، المصدر السابق، ص772 .

[58]– الغبريني، المصدر السابق، ص429 .

[59]– نفسه ،ص430.

ومن العلماء الذين أجادوا في هذا الفن ابن النحوي والحسن بن الرشيق (390هـ-363هـ/1071م) ولد بالمسيلة وتعلم صناعة الصياغة على يد والده رشيق ثم مال إلى علوم الأدب والتاريخ فأخذ عن علماء بلده[64]، ثم رحل إلى القيروان أين تلقى تكوينه النهائي التي لقي بها كبار العلماء و الأدباء فلزمهم وأخذ عنهم ومدح أميرها المعز بن باديس الصنهاجي وقربه إليه، مما جعله يقيم في المدينة إلى غاية الحملة الهلالية وانتقل إلى جزيرة صقلية التي أقام بها إلى أن توفي. أما ابن البذوخ (ت 576هـ/1180م) فقد ولد بالقلعة أو ضواحيها[65]، وقد كانت له ميولات في الكتابة والشعر إضافة إلى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعي الأصم وعلي بن إسماعيل القلعي المعروف بالطميش وله كتاب ذخائر الواعظين وسرائر العاملين.

- **الشعر :**

اتسم الشعر في العصر الحمادي وخاصة في القلعة بالوزن والقافية واستخدام البحور الشعرية التقليدية واتسم بالاحتشام والوقار[66] والحياء وتعددت أغراضه من توسلات وابتهالات ومدح ورثاء[67].

- **شعر التوسلات والابتهالات:**

يقوم هذا النوع على الابتهال والتوسل إلى الله عز وجل لتفريج الهموم ورفع الضيق والحرج، ويظهر هذا النوع ممثلا من خلال قصيدة "المنفرجة" الشهيرة لابن النحوي والتي منها هذه الأبيات من بحر المتدارك على شكل تخميس:

يا من يشكو ألم الحرج ويرى عسرا قرب الفرج

أبشر بشذا فرج أرج اشتدي أزمة تنفرج

قد أذن ليلك ببلج[68]

---

[60]- رشيد بورويبة وآخرون، المرجع السابق، ص245 .

[61]- نفسه، ص252 .

[62]- أحمد بن محمد أبو زراق، **الأدب في عصر دولة بني حماد**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص148-149 .

[63]- نفسه، ص289.

[64]- محمد البلنسي العبدري، **الرحلة المغربية**، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الأدب ، الجزائر، (د،ت)،ص47 .

- **شعر المدح**

يقوم على ذكر خصال ومحاسن الممدوح ومن أمثلته هاته الأبيات من البحر الطويل القلعي الأصم في مدح كرامة ابن المنصور ابن الناصر بن علناس منها:

وحاكيه بالماء لوى اضطرابه قواما وحسنا حين يبدو ويوبص

قضيب لجين ألمع الصقل متنه وأخلصه من السك مخلص[69]

- **شعر الزهد :**

يقوم على نبذ شهوات النفس والتعفف عن ملاهي الدنيا وزخرفها ومنها هاته الأبيات لعلي بن إسماعيل القلعي:

أغضبت ربي على علماً بسطوته على العصاة وما أغضبت شيطاني

أثرت نفسي على ديني لشقوتها يا ويح نفسي لقد فازت بخسران [70]

- **شعر الرثاء:**

يقوم على ذكر مناقب ومحاسن المرثى ويظهر هذا النوع من خلال رثاء ابن حماد الصنهاجي لمدينة القلعة بعد خرابها:

إين العروسين لا رسم وطلل فانظر ترى ليس إلا السهل والجيل

وقد عفى قصر حماد فليس له رسم ولا أثر باقي ولا طلل[71]

---

[65]– عبد الحليم عويس ، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة، القاهرة، 1991م، ص 41–42.

[66]– رشيد بورويبة ،المرجع السابق، ص254.

[67]– نفسه،ص255.

[68]– العبدري ، المصدر السابق ،ص45.

[69]– نفسه،ص47.

[71] – بورويبة ، المرجع السابق، ص252.

- **شعر التذكير بالموت:**

يقوم على وعظ النفس وتذكير نهاية مآلها إلى القبر ومنه إلى الجنة أو النار منها أبيات لابن البذوخ الطيب:

يا خالق الخلق يا من لا شريك له قد جئت ضيفا لتقريب بالغفران

مولاي مالي سوى التوحيد من عمل فاختم به منعما يا خير من نام

- **التاريخ:**

عرفت القلعة نخبة من المؤرخين الذين جاء التاريخ على ذكرهم، نذكر منهم أبو عبد الله محمد بن علي بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي له مؤلفات مشهورة في هذا المجال أشهرها كتاب النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة وكتاب أخبار ملوك بنو عبيد وبرنامج في ذكر شيوخه ومقروئيته من الكتب.[72]

- **العلوم العقلية :**

عرفها ابن خلدون "بأنها العلوم الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الإسلام بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براعمها ووجه تعليمها، حتى يقن موقفه نظره وبحثه على الصواب ومن الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر[73]"، فالعلوم العقلية بقلعة بني حماد كانت موجودة إلى حد ما على الرغم من قصر بقائها كعاصمة للحماديين وكمدينة تابعة لهم إلا أنها بلغت مكانة مرموقة جعلت العلماء يتقاطرون عليها من مختلف الأنحاء، ومن ضمن العلوم العقلية العلوم العددية والتي تعرف بها خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف ومن فروعها علم الحساب وعلم الجبر والفرائض والتي تعرف بالرياضيات اليوم[74].

---

[72] – ابن الخطيب،المصدر السابق، ص332.

[73] – ابن خلدون،المصدر السابق ،ص779.

[74] – ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص897– 899 .

- **علم الحساب:**

برز في القلعة عدة علماء في الرياضيات خاصة في علم الحساب الذي يدرس في مساجدها ومعاهدها، ومن أعلام الحساب علي بن معصوم بن أبي ذر القلعي ولد (489هـ/994م)، نشأ وتعلم بقلعة بني حماد ثم رحل إلى المشرق حيث استوطن العراق واخذ من فقهائها ثم انتقل إلى خراسان كان بحرا في الحساب توفي بمدينة قرين وهي مشهورة بكثرة العلماء المنسوبين إليها عام (551هـ/1056م)[75].

- **علم الفرائض :**

يعتبر علم الفرائض أحد الركائز التي تقوم عليه مصالح المسلمين حيث أوليت له عناية كبيرة في كل أنحاء العالم الإسلامي ولاسيما مغربه حيث ازدهت مختلف حواضره بما في ذلك قلعة بني حماد وعرفه ابن خلدون "بأنه يختص بمعرفة فروض الوراثة ويجمع بين المعقول والمنقول من أجل الوصول به إلى الحقوق في المواريث بوجه صحيحة يقينية" ومن الذين نبغوا في هذا العلم محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي علي القلعي له مؤلف بعنوان إيضاح الغوا مض في علم الفرائض، كما له مصنفات كثيرة مشهورة انتفع بها الكثيرون، رحل إلى اليمن وتوفي بها، ولا يحظى الارتباط الوثيق بين علم الفرائض وعلم الحساب باعتبارات أن الفقيه المتمكن من علم الفرائض يحتاج في تقسيمه إلى الإجادة في علم الحساب حتى يستطيع تقسيم التركة كما ينبغي دون إجحاف أو خطأ[76].

---

[75] – محمد قويسم، علماء الرياضيات في مدينة قلعة بني حماد، الملتقى الدولي حول مدينة قلعة بني حماد 1000سنة من التأسيس، قسم التاريخ بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة، الجزائر، افريل2007، ص1–2.

[76] – ابن خلدون،**المقدمة**،المصدر السابق، ص472–473.

- **الطب والصيدلة :**

إن هاتين الصنعتين كانتا متلازمتين في العهد الإسلامي، إذ لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى وبطبيعة الحال لا يخلو مجتمع من المجتمعات في القديم أو الحديث منها، وذلك لأهميتها في حياة الناس ولقد شهدت قلعة بني حماد تطورا في مجال الطب والصيدلة ، ومن مظاهر تطور الطب في القلعة بروز أطباء كبار منهم: أبو جعفر بن علي البذوخ (ت575هـ/1079م) المعروف بابن البذوخ القلعي الطبيب[77]،كان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة إلى جانب حسن نظره في الإطلاع على الأمراض وعلاجها إذ أنه جمع بين الطب والصيدلة، رحل إلى المشرق واستقر بدمشق وأنشأ دكان عطر بمنطقة اللبادين حيث كان يجلس فيه ويعالج من يأتي إليه ويصف إليه الدواء إلا أنه كان يقوم بتهيئة الأدوية المركبة التي كان يصنعها من سائر المعاجن والأقراص والسفوفات يبيع منها وينتفع الناس بها[78].

و له كتب لا تزال مخطوطة منها "حواشي على كتب قانون ابن سينا"، و"شرح الفضول لأبي قراط" وكتاب "ذخيرة الألباب أو الباء في الباء" و"لطائف الأنوار في الطب"، أما الطبيب الثاني هو ابن أبي المليح، كان طبيبا مشهورا، حازقاً في صناعة الطب، ويوجد طبيب يظهر من اسمه أنه من أسرة البذوخ وهو أبو حفص عمر بن علي ابن خليفة ابن البذوخ القلعي، كان طبيبا بالإسكندرية ومن خلال اسمه يمكن أن يكون من أبناء عمومه ابن البذوخ، خاصة إذا اعتبرناه أبو جعفر وأبو عمر بن علي وأبو حفص هو عمر بن علي وجدهما هو الخليفة ابن البذوخ.[79]

وعن تطور الأدوية والطب في قلعة بني حماد نجد نصا للإدريسي يبين ذلك يقول فيه: " بهذه المدينة عقارب كثيرة سود، تقتل في الحال وأهل القلعة يتحرزون منها ويتحصنون من ضررها، ويشربون لها نبات الفليون الحراني، ويزعمون أنه ينفع، درهمين منه لعام كامل... وحكى عن هذه الحشيشة أنه شربها وقد لبسته العقرب فسكن الوجع سريعا، ثم أنه لسبته العقارب في سائر العام ثلاث مرات، فما وجد لذلك اللبس ألما وهذا النبات ببلد القلعة كثير."[80]

---

[77] – محمد قويسم، الطب في قلعة بني حماد، الملتقى الوطني الأول للدولة المركزية لقلعة بني حماد والإشعاع الثقافي والفكري، يومي 26-27 أفريل، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، بجامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2005م، ص02.

[78] – نفسه ، ص5.

[79] – محمد بن عميرة، المرجع السابق، ص109.

[80] – الإدريسي، المصدر السابق، ص109.

فمن خلال ما أورده الإدريسي يتضح مدى تطور وازدهار الطب في القلعة، حيث أننا نجدهم قد عرفوا المداواة بالأعشاب وهو ما يعرف عندنا بالطب البديل، إلى جانب معرفتهم المداواة بسم العقارب، في حين أن العلم الحديث لم يتوصل حتى اليوم لدواء مضاد للسعتها سوى مصل من سمها، إضافة إلى شيء يبهر العقل ويؤكد المستوى العلمي الرفيع الذي بلغه الطب عند الحماديين هو تقنين الدواء بجرعات محدودة لعام كافية لوقاية من سمها وهو دليل أيضا على أن هناك تجارب أجريت على الدواء قبل أن يستعمل ويقنن[81].

4. خاتمة:

يتبين لنا مما سبق الدور البارز للأمراء الحماديين ، و الموقع الاستراتيجي للقلعة في النمو الحضاري الواضح الذي شهدته القلعة، كما رصدنا ازدياد أهمية القلعة الإقتصادية والثقافية و تحولها إلى مركز إشعاع حضاري هام ببلاد المغرب بعد انهيار القيروان ، و انتقال سكانها إلى القلعة مع ما يحملونه من ماضي حضاري كبير و كذلك بعد إنهيار مدينة قرطبة. مما جعل قلعة بني حماد بالمعاضيد التابعة لولاية المسيلة تتحول لأحد أهم حواضر و رموز الوجود الإسلامي بالجزائر، كما وتعتبر امتدادا لدولة حماد بن بلكين الذي حاول صقل وتثبيت الهوية الإسلامية طيلة حكمه، ورغم أهمية هذا الصرح التاريخي والإسلامي الكبير إلا أن القلعة باتت في طريقها إلى الزوال.

رغم تصنيف قلعة بني حماد من طرف منظمة اليونسكو سنة 1980 ضمن المواقع المهمة التي تستوجب الاهتمام والعناية اللازمة كالقصبة بالجزائر إلا إن الواقع يثبت أنه كلما تقدم الزمن إلا وبقت القلعة في خطر ، فحتى يومنا هذا لم تحض القلعة بأي اهتمام يذكر أو ترميم مسها عدا بعض المحاولات هنا وهناك سنة 1974 حيث رممت صومعة المسجد الكبير والتي تعد نسخة مطابقة لمسجد إشبيلية كذلك سنة 1976.

وإلى سنة 1982، حيث وضع تصميم للأنقاض وترميم الموقع من طرف منظمة اليونسكو و كذلك في سنة 1987 أين اتجهت بعثة جزائرية وبولونية لترميم القلعة وإنقاذ ما أمكن إنقاذه، لكن الواقع يثبت أن أجزاء كبيرة من القلعة تضررت وبشكل كبير فالمسجد الكبير لم يعد كبيرا كما كان، حيث لم تبق منه إلا المئذنة والتي ما تزال شامخة لحد الآن، والحفريات التي كانت تقام هنا وهناك فجل ما كان يعثر عليه ويستخرج كان يوجه إلى خارج الوطن، فأول حفرية بالقلعة كانت على يد بول بلا نشي سنة 1987 ثم لوسيان قولوفان ما بين 1950 و 1960 لكن ما وجده هذا الأخير وجه إلى

---

[81] – الادريسي ، المصدر السابق ، ص114.

متحف الباردو بباريس ومما ساعد على نسيان وطي صفحة اسمها من التراث الإسلامي بالجزائر هو غياب التحسيس الإعلامي والخرجات الميدانية والتي تكاد تكون معدومة، كل هذه الأمور عجلت باندثار تدريجي للقلعة إن لم نقل زوالا نهائيا لها.

5. قائمة المراجع:

- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر،مؤسسة نويهض ، بيروت ، لبنان ،1980ج1 .
- عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، موسوعة تاريخ المغرب العربي، ج2، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994م.
- عبد الرحمن ابن خلدون ، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، مكتبة القاهرة، مؤسسة الإعلامي للمطبوعات، لبنان، 1982م.
- رشيد بورويبة ،الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر,1977 .
- عثمان الكعاك ،موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي ، تقديم أبو القاسم سعد الله و أخرون ،دار الغرب الاسلامي1999.
- محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،1983.
- رشيد بورويبة ، مدن مندثرة ،سلسلة فن وثقافة ،وزراة الاعلام و الثقافة ،الجزائر ،1992.
- محمد بن عميرة:،القلعة قاعدة بني حماد الثقافية الأولى، حولية المؤرخ لإتحاد المؤرخين الجزائريين، العدد1، الجزائر، 2002م، ص106.
- عشراتي سليمان، الشخصية الجزائرية، بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية، ج2، دار الغرب للنشر و التوزيع، الجزائر، 2002م، ص111.
- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- البكري أبي عبيد الله، المسالك و الممالك، ج2، تحقيق فان لويغن و أندري فيزي، الدار العربية للكتاب، تونس ،1992م.
- منور البركاني ، قلعة بني حماد الحاضرة والحضارة ،منشورات جمعية اليقين الحضاري ، المسيلة ،1995،

- Rachid Bouruiba ،les hammadites, Entreprise National du livre ,Alger , 1984.
- Lucien Golvin,Le Maghreb central à L'époque des ziri des arts et métiers graphique,paris1957